منافسات سباق العربات في المغرب القديم ونماذج منها

الدكتور رضا بن عـــلال
المدرسة العليا للأساتذة (بوزريعة-الجزائر)

Résumé

Les représentations du cheval et du char dans l'iconographie antique du Sahara sont nombreuses, et démontre l'aptitude des africains à utiliser depuis le milieu du IIème millénaire avant notre ère ces moyens de locomotion pour chasser, parader et concourir. Et avec l'avènement de l'occupation romaine de l'Afrique, les courses de chars sont devenues le sport national par excellence. Ainsi, le notable municipal africain devait, à l'époque romaine, par une sorte de moral de classe, faire au peuple des libéralités, et le peuple attendait cela de lui. Ses libéralités, que l'épigraphie et les mosaïques ainsi que les sources littéraires grecques et romaines relataient, se traduisaient par l'organisation de courses de chars et de somptueux banquets en l'honneur des auriges africains.

ملخص

تفيدنا الرسومات والنقوش الصخرية في الصحراء الكبرى بمعرفة المغاربة القدماء للعربات الخفيفة منذ منتصف الألف الثانية قبل الميلاد، والظاهر أن استعمالهم لها في هذه الفترة المبكرة من تاريخهم إنما انحصر في الصيد والمباهاة وبعض السباقات التي كانوا يمارسونها في العراء. وباحتلال الرومان للمغرب القديم، اعتنق المغاربة القدماء ثقافة الألعاب الرومانية التي من ضمنها سباق العربات لمعرفتهم المسبقة بها. ولقد برع الرياضيون الأفارقة في سباق العربات حتى صارت هذه الرياضة من بين سمات الرقيّ الحضاري للمغرب القديم، وهو ما تشهد عليه مشاهد الفسيفساء ومجموعة كبيرة من النقوش والنصوص الأدبية الإغريقية واللاتينية. التي عرّفتنا بأسماء الوجهاء وأعيان المغرب القديم ممن وهبوا ألعابًا ارتبطت بعبادة الإمبراطور وبعالم الآلهة، في حين احتفلوا ببعضها الآخر على شكل هبات وهبوها لسكان المدن والبلدات التي سكنوها وزاولوا فيها مختلف أنشطتهم الاقتصادية والاجتماعية. وبذلك تكون النقوش ولوحات الفسيفساء والنصوص القديمة قد أفادتنا بالتعرف على إسهامات الوجهاء والأثرياء الخواص من خلال تنظيمهم لسباق العربات. وعادة ما كانت هذه العروض تبدو بسيطة

مقارنة بالمنافسات التي كانت تنظّمها السلطة الرومانية الحاكمة في عواصم المقاطعات وفي المدن والبلدات التي كانت تتمتع بصفة المواطنة، قبل أن يعمم آل سفيروس هذا الحق على كافة سكان الإمبراطورية الرومانية.

أبطال سباق العربات في المغرب القديم

يشير سوفوكليس (Sophocles) في القرن الخامس قبل الميلاد إلى اشتراك الليبيين بكدنين في سباق للعربات أقيم بدلفي[1]. كما أوكل بعض أعيان ووجهاء مقاطعات المغرب القديم خلال الاحتلال الروماني للفنانين والحرفيين تجسيد مشاهد السباق على لوحات فنية تخلّد بطولات فرق السباق على أرضيات البيوت والحمامات وقاعات المجالس البلدية وغيرها. واللافت للانتباه أن المغاربة القدماء قد شغفوا بمتابعة كل ما له علاقة بهذه الرياضة التي تعود جذورها في المغرب القديم إلى نهاية العصر الحجري الحديث وبداية فجر التاريخ، أي الفترة التي ظهرت فيها العربات والخيول في الفن الصخري للصحراء الكبرى[2].

وليس في استطاعتنا أن نقول ما إذا كانت الخيول الإفريقية، التي كثر تمثيلها في مشاهد الفسيفساء في المغرب القديم أثناء الاحتلال الروماني أكثر شهرة من أبطال سباق العربات أنفسهم، أم أن الأمر يتعلّق بشحّ المادة الأثرية المتمثلة في النقوش ولوحات الفسيفساء وقلة المصادر الأدبية، لكن ما هو مؤكد أن الجمهور ارتبط بمختلف أطيافه بفرق السباق المتنافسة ضمن ألعاب السيرك. وقد تألق قواد عربات السباق خلال الاحتفالات التي كانت تقام في مدن المغرب القديم خلال العهد الإمبراطوري، نذكر من بينهم كريسكانس (Crescens) الموريطاني الذي ذاع صيته على عهد الإمبراطور نيرفا (Nerva)، إذ شارك هذا الرياضي البطل في 686 سباقا للعربات. أحرز خلال هذه التظاهرات سبعة وأربعين مرّة على الجائزة الأولى ومائة وثلاثين مرّة الجائزة الثانية، كما حاز على المرتبة الثالثة إحدى عشر مرّة. وقد حقق هذا الحوذي الذي لم يتجاوز عمره 22 سنة ثروة قدّرت بمليون وست مائة ألف سسترس[3].

ونعرف من بقايا النقوش التي تغطي شواهد القبور، سعادة قواد عربات السباق بممارسة هذه الرياضة التي أدرّت المال على الكثير منهم وأخرجتهم إلى عالم الشهرة. غير أن هذه الرياضة تسببت في أحيان كثيرة في حوادث لا يحمد عقباها، أفضت إلى مقتل الرياضيين وهم في مقتبل العمر، نذكر من بينهم أوريليوس موليكيوس (M.Aurelius Mollicius) الذي أحرز على 125 نصر، وتوفي عن عمر لم يتجاوز العشرين. أما كريسكانس فقد توفي عن عمر يناهز 22 عامًا[4].

ويمكننا أن نتتبع المشوار المهني لقواد عربات السباق، الذين كانوا يدخلون حلبات السباق، على ما يبدو، في سن الثالثة عشر. ويفيدنا الرجوع إلى تلك الألفاظ والألقاب المرافقة لأسماء هؤلاء الرياضيين في النقوش للتعرّف على هذا التطور، بحيث يعرف حوذي عربة السباق في مرحلة أولى باسم (aurigae) أو (bigarii)، كما تعرّفه كتابات أخرى على أنه الحوذي المبتدئ (rudis auriga)، ثم سرعان ما يتحول هذا اللقب إلى (agitator) بعد اكتساب الحوذي

للخبرة المهنية. وكان هؤلاء الرياضيون المبتدئين يتدربون في بدايات مشوارهم الرياضي على قيادة العربات المقرونة إلى ثلاثة خيول (trigarium). ثم ينتقلون، بعد اكتساب الخبرة، إلى قيادة العربات المقرونة إلى أربعة خيول (quadrigium) [5].

ولم يكن من الغريب أن يصلنا صدى أبطال سباق العربات من خلال النقوش، إذ يفهم من إحداها التي تم العثور عليها في مدينة تبسة (Theveste) بالشرق الجزائري، إلى ممارسة المدعو يوليوس كماروس (C. Julius Cammarus) تدريب خيول السباق، ويعود ذلك إلى الخبرة التي اكتسبها هذا الرياضي من خلال ممارسته للسباق وتحكمه في قيادة العربات المقرونة إلى ثلاثة خيول[6]. ورغم وقع الألم على نفسية أقارب هذا الرياضي، إلاّ أنهم قاموا بحفر كلمات معبّرة على لوحة حجرية تدلّ على حبّ وسعادة هذا الأخير بممارسة رياضة سباق العربات التي كانت سببًا في وفاته[7].

وكلما أشدنا ببطولات من سبق ذكرهم من قواد عربات السباق، إلاّ ونجد أنفسنا أمام مجموعة أخرى من أبطال هذه الرياضة، الذين اهتزّت ميادين سباق العربات لوقع هتافات أسمائهم، من بينهم بطل مدينة دوقة في تونس الذي أطلق عليه اسم إيروس (Eros) تيمنًا بإله الحب عند الرومان، وربما أطلقت عليه هذه التسمية لما كان يحدثه في نفسية أنصار فريقه ومحبيه وتعلّقهم بإنجازاته الرياضية[8]. وتظهر لنا إحدى المشاهد الفنية هذا البطل الشاب بعد انتصاره في السباق (الشكل 1)، ترافقه عبارات: «يا حب، أنت تأتي بكل شيء» (Eros, omnia per te) [9].

وتمثّل فسيفساء عودة الحظ (Fortuna redux) المحفوظة بمتحف مدينة تبسة، سفينة شحن تجارية تشق عباب البحر تتمثّل حمولتها في كمية كبيرة من الجرار. وربّما كانت هذه الصفقة التجارية الرابحة سببًا في إقامة منافسات صيد الحيوانات وسباق العربات[10]. ويجسّد المشهد إعلان الحكم لنتيجة السباق، واستلام المدعو ماركلّوس (Marcellus) جائزة الانتصار المتمثلة في سعفة نخيل (الشكل 2).

وفي الحين الذي تعرّفنا فيه إحدى لوحات الفسيفساء من مدينة قيصرية في مقاطعة موريطانيا، ببطل محليّ يدعى كيزوريوس (Cesorius). تحيلنا مشاهد أخرى من قرطاجة، تعود إلى بداية القرن الرابع للميلاد، إلى أسماء أربعة حوذيين هم: أوفوميوس (Euphumios) من الفريق الأزرق ودومنينوس (Domninos) حامي الألوان البيضاء وأوثميس (Euthymis) التابع للفريق الأخضر وكيفالون (Kephalon) المدافع عن الألوان الحمراء[11]. ونستشف من لوحة تعود إلى نهاية القرن الخامس وبداية القرن السادس، اكتشفها علماء الآثار في ضواحي قرطاجة، تخليد أحد الأثرياء المعجبين بهذه الرياضة لأسماء مشاهير سباق العربات في زمانه، منهم بنيناتوس (Benenatus) وكرياكوس (Quiriacus) وكليريوس (Celerius) وكبريانوس (Ciprianus) [12].

وكان للحافز المادي دوره في الارتقاء بهذه الرياضة إلى مصاف المنافسات التي أقبلت جماهير المغرب القديم على متابعة فعالياتها. وغالبا ما كانت مكافآت هؤلاء الأبطال تمثّل في مشاهد الفسيفساء على أنها تيجان النصر وسعف النخل (الشكل 3). بالإضافة إلى ذلك، فقد صرفت أموال طائلة على فرق السباق المتنافسة في ميادين سباق العربات، وهي التي مكّنت البطل سكوربيانوس (Scorpianus) صاحب سبعمائة انتصار من بناء بيت فاخر في ضواحي قرطاجة على عهد الإمبراطور هدريانوس (Hadrianus)، زيّنه

بلوحات الفسيفساء المكلفة[13]. وفي الحقيقة، فلقد تمكن بعض هؤلاء الرياضيين من جمع ثروات في روما بلغت أرقاما يعجز الحرفيون والتجار على تكوينها، بحيث قدّرت ثروة ديوكليس على سبيل المثال، بنحو 35 مليون سسترس[14].

وغالبًا ما كانت تحدث المناوشات بين أنصار الفرق المتنافسة في ميادين سباق العربات، فكان يقدم هؤلاء على الاشتباك والتشاجر بسبب إخفاق نجومهم في الظفر بالمراتب الأولى، أما في حالة ما إذا كان الحظ حليف هؤلاء الأخيرين فإنهم يرفعون من طرف محبيهم إلى مصاف الخالدين[15]. ويبدو أن الذين صنعوا المجد في حلبات السباق كانوا أول من مسّهم الضر، بحيث تعرضوا لأعمال السحر والشعوذة[16]، ومات معظمهم في مقتبل العمر، في حين نكّل الحكام بخصوم الفرق التي كانوا يشجعونها[17].

علاقات فرق سباق العربات بالجهاز السياسي في روما

وصف كليغولا (Caligula) ونيرون (Néron) ولوكيوس فيروس (Lucius Verus) وكمودوس (Commode) بالديمقراطيين لأنهم كانوا يميلون إلى الفريق الأخضر الذي كان أنصاره من بين جماهير الشعب(18). أما أعضاء مجلس الشيوخ الروماني والأرستقراطيون فقد كانوا من مناصري الفريق الأزرق. ولأن الإمبراطور كراكلا (Caracalla) كان من مناصري الفريق الأزرق فقد أصدر حكما بالإعدام ضد قواد عربات الفريق الأخضر. بل وصل الحدّ ببعض الأباطرة إلى البطش بأنصار ومشجعي فرق السباق على ما يبدو، فقد نكّل فتيليوس (Vitellius) بأنصار الفريق الأخضر لسبهم للفريق الذي كان يشجّعه هذا الإمبراطور، وهو الفريق الأزرق[19].

ومما يلفت النظر في النقوش اللاتينية للمغرب القديم التي تعود إلى القرن الثالث الميلادي، أنها توحي إلى لجوء مسيري فرق السباق الأربعة إلى التحالف، وذلك ربما بغرض الدفاع عن المصالح المشتركة لفرق الحلف[20]. فمن هذه الناحية نجد أنفسنا أمام حلف يجمع فريقين قويين، الأول بزعامة الألوان الزرقاء، والثاني بزعامة الألوان الخضراء. فقد تحالف كل من الفريق الأزرق والفريق الأحمر، واتحد الفريقان الأخضر والأبيض[21].

ولعل هذا ما يدفعنا إلى طرح إشكالية إعادة بناء الهيكل الداخلي لكل فريق، حيث دفعت الأزمة المالية، التي فقدت بموجبها العملة الرومانية قيمتها خلال القرن الثالث الميلادي، بهذه الفرق إلى إعادة تنظيم تسييرها الداخلي في المغرب القديم، وإعادة النظر في علاقات كل حلف بالنظام البلدي، على اعتبار هذا الأخير الراعي الرسمي لسباق العربات. والتي لا نعرف عنها الكثير في المغرب القديم، سوى ارتقاء مسيّري فرق السباق من أهالي المغرب الروماني إلى موظفين في روما، أوكلت لهم مهمة تنظيم سباق العربات خلال القرن الثالث الميلادي[22].

من خلال ما تقدم من الأدلة الأثرية، لم يكن في مقدورنا إثبات المدى الواسع لانتشار فرق السباق، ولا مدى ديمومة سباق العربات في المغرب القديم أثناء الاحتلال الروماني إلى غاية القرن السادس الميلادي، إلاّ أنه يمكن القول أن الخيول التي كان يستوردها الرومان من المغرب القديم حققت النصر لعدد معتبر من قواد عربات السباق[23].

الخيول الإفريقية

إذا أردنا البحث عن تفسير عملي معقول لاهتمام الرومان باستيراد الخيول الإفريقية، فإننا سنتوقف حتما عند وصف الجغرافي سترابون (Strabon) الذي أشار إلى أنها كانت خيولا صغيرة، ومع كونها وديعة وشديدة اليقظة فإنها كانت تنقاد بسهولة وهي تتبع صاحبها دون حاجة هذا الأخير إلى حبل ليتحكم فيها[24]. أما ليفيوس (Tite Live) فهو يرى أن هذه الخيول كانت قبيحة المظهر وسريعة الركض[25]. وقد أشارت نصوص المصادر الأدبية اللاتينية إلى ملوك نوميديا الذين كانوا يعتمدون بشكل كبير على الفرسان الذين كانوا يمتطون صهوة خيولهم دون لجام[26].

ويبدو أن أهم ما يمكن الإشارة إليه بخصوص العلاقات التجارية التي تتعلق باستيراد الرومان للخيول الإفريقية يلخصها لنا بوليبيوس (Polybius) الذي لم يتصور وجود بقعة من الأرض تحوي ما بليبيا من الخيول والأبقار والأغنام[27]. ومن ناحية أخرى يتعرض ليفيوس إلى صفقات الملك ماسينيسا التجارية، التي نستشفّ من خلالها إقدام هذا الأخير على تزويد حلفائه الرومان بعدد معتبر من الخيول يقدّر بنحو 3900 فرس، ما بين سنوات 200 و170ق.م[28].

وتشير النصوص اللاتينية وبقايا النقوش التي خلّفها لنا أسلافنا إلى أن الخيول الإفريقية كانت تروض في الثالثة من عمرها وتدخل حلبات السباق في سن الخامسة[29]. وتحتفظ لنا هذه النقوش ومشاهد الفسيفساء بأسماء هذه الحيوانات التي اشتهرت بدورها، حتى أصبحت مطلوبة من طرف فرق السباق في روما وبقية مقاطعات الإمبراطورية. ولسنا ندري ما إذا كان تدريب هذه الخيول يتم على أيدي مربي هذه الحيوانات، أم أنه كان يتم بالتنسيق مع محترفي فرق السباق، إلاّ أن الأكيد هو ما أشرنا إليه من قبل[30] من حيث ابتكار الليبيين لتقنية ذكية تدعى بقرن قضيب الجرّ الغرض منها ترويض الخيول. وتتمثل هذه التقنية في وضع الحيوان بين عريشين وربطه من زمامه إلى قضيب خشبي لجعله يمشي بطريقة منتظمة. ومن الناحية التقنية فإن الخيول التي ربطت من زمامها في خط مستقيم بواسطة قضيب خشبي كانت مجبرة على السير والتوقف على وتيرة واحدة، وكانت تمشي وتركض بالتوازي نظرا لوجود عريش يتوسطها[31].

وعمومًا لم يكن انتشار استعمال الخيول الإفريقية يقتصر على روما فقط، بل تعداه إلى باقي الإمبراطورية الرومانية التي كانت تمتد حدودها عبر قارات أوروبا وإفريقيا وآسيا. ويعود سبب هذه الشهرة إلى مجموعة الخصال التي سبق ذكرها، على أن أغلب الخيول الإفريقية المستوردة من طرف الرومان في القرن الثاني والقرن الثالث للميلاد كان مصدرها مقاطعتي البروقنصلية ونوميديا[32]، والتي تبيّن الأدلة المادية وجود مزارع متخصصة في تربية خيول السباق، مع وجود مجموعة من الأفارقة امتهنوا تربيتها[33].

وكانت تشحن أعداد كبيرة من الخيول الإفريقية عن طريق البحر إلى ميادين السباق في روما وإلى مقاطعات جنوب غرب أوروبا وبلاد اليونان، ونستطيع تأكيد ذلك من خلال فسيفساء مدينة مداينة (Althiburos) في تونس، التي تصور مشهد شحن مجموعة من الخيول هي فيروكس (Ferox) وإكاروس (Icarus) وكوبيدو (Cupido) على باخرة تحمل اسم (Hippago). وما تباهي الحوذي ديوكليس (Dioclès) بأنه الأفضل في قيادة الخيول الإفريقية، وتفضيل الحوذي جوتا كلبورنيانوس (Gutta Calpurnianus) لهذه الحيوانات دون سواها، وإسهام الحصان الإفريقي للحوذي

آولوس تيريس (Aulus Teres) الملقب هيلاروس (Hilarus) في جعل صاحبه يظفر بألف انتصار، سوى أدلة على ما وصلت إليه هذه الحيوانات من مكانة مرموقة في مجتمع المغرب القديم في القرنين الأول والثاني للميلاد[34].

ولا يمكن للباحث أن يشير إلى الخيول الإفريقية، دون الإشارة إلى مربيها. فقد اشتهر اسم أحد مموني الخيول في المغرب القديم يدعى سوروتوس (Sorothus)، وهو من أثرياء مدينة حضرموت (Hadrumetum) في تونس، فكان هذا الرجل الثريّ يملك مزرعة متخصصة في تربية الخيول الموجّهة لسباق العربات (Saltus Sorothensis) تقع في ضواحي سوق أهراس (Thagaste) في شرق الجزائر (الشكل 4). ولعله من الأهمية بمكان أن نلاحظ وجود مثل هذه المزارع في مدينة يول، عاصمة مقاطعة موريطانيا، إذ يفهم من إحدى لوحات الفسيفساء المكتشفة فيها قيام المدعو كلاوديوس سبينوس (Claudius Sabinus) ببيع أو استئجاره إلى الفريق الأخضر[35] حصانا يعرف باسم موكوزوس (Muccosus) [36].

وليس في استطاعتنا أن نقول بأن الحصان دستروايقوس (Destroiugus) الذي كان ملكا للمدعو غلاوكوس (Glaucus) هو حيوان اشتهر وذاع صيته من بين مئات الخيول التي كان يسهر هذا الأخير على تربيتها، ولا أن تكون مجموعة الخيول المعروفة باسم داورياتي (Daouriati stabula) تنتمي إلى مزارع خاصة بتربية الخيول (equorum) [37]. غير أن وجود الضيعة الملاحظة في واد العثمانية بضواحي مدينة قيرطة[38]، ومزارع مماثلة في ضواحي قرطاجة[39]، تبيّن لنا ممارسة هذا النشاط بشكل واسع من طرف مجموعات من مربي الخيول الإفريقية.

ولعله من الأهمية بمكان أن نلاحظ هنا ما وصلت إليه هذه الحيوانات النبيلة من خلال شهادات أصحابها ومحبيها الذين خلدوا ذكراها في النقوش ولوحات الفسيفساء، نذكر من بينها على سبيل المثال الحصان بوليدوكسوس (Polydoxus) من مدينة كويكول (Cuicul)، الذي كتب فيه صاحبه بومبيانوس (Pompeianus) مخاطبا: «غالب أو مغلوب أحبك يا بوليدوكسوس»(40). أما الحصان بولستيفانوس (Polystefanus)، فقد فاز عدّة مرات بإكليل النصر[41]. ونحتكم على نقش عثر عليه في روما ينسب إلى فترة حكم الإمبراطور دوميتيانوس (Domitianus)، يشير إلى مشاركة عشرين حصانا إفريقيا وحصان موريطاني في سباق أقيم آنذاك[42].

وخلال القرنين الثاني والثالث وحتى القرن الرابع أصبحت الخيول والأفراس الإفريقية مطلوبة بكثرة، فسارعت فرق سباق العربات إلى اقتنائها، وأحبها مرتادو ميادين سباق العربات في المغرب القديم وخارجه. وبإمكاننا أن نتتبع شغف الجمهور بمتابعة المشوار الرياضي لهذه الحيوانات النبيلة من خلال مشاهد الفسيفساء التي حفظت لنا أسماء وصفات هذه الخيول، نذكر من ضمنها الحصان بولستيفانوس والحصان أرخيوس (Archeus) الذين يصورهما مشهد فسيفسائي يضعان تاجا على رأس الربة فينوس[43]. ويبدو أن معظم هذه الخيول كانت تحمل أسماء أبطال الميثولوجيا مثل إكاروس (Icarus) (44) وديوميدس (Diomedes)، أو أسماء بعض الآلهة مثل إله البحار نبتونيوس (Neptunius) وإله الحب كوبيدو (Cupido)، بالإضافة إلى بعض الأسماء الأسطورية مثل الحصان المجنح (Pegasus) والمضيء أو المشعّ (Faiton) والرسول (Viator) [45].

وعلى أي حال فإن إغداق المال على

أبطال سباق العربات كان يصاحبه حصول الخيول المقرونة إلى العربات على جوائز قيمة غالبا ما تمثلها لنا مشاهد الفسيفساء على شكل سعف النخيل أو أسطوانات مزخرفة (الشكل 5). وهنا يجدر بنا أن نقف لنتساءل عن مصير هذه الخيول بعد انسحابها من حلبات السباق؟

نعرف من بقايا النقوش أن الخيول والأفراس الإفريقية كانت تنعم بحياة الأبطال بعد انسحابها من حلبات السباق، نذكر من ضمنها ما ورد عن الفرس سبايدوزه (Speudusa) التي عاشت حياة هادئة بعد انسحابها من ميادين السباق أين كانت «أسرع من الريح»[46]. كما أننا نستفيد من الرجوع إلى قانون ثيودوزيوس (Theodosius) الذي يشير في أحد فصوله (X, 6, 1) إلى منح منحة تقاعد للخيول التي تنسحب من حلبات السباق بعد مشوار حافل بالانتصارات[47].

والظاهر أن انسحاب الخيول من ميادين السباق، سواء كان ذلك في المغرب القديم أو في روما، واستفادة هذه الحيوانات من رعاية مالكيها لكونها أدرّت عليهم المال والشهرة، وعدم وجود أي دليل مادي أو أدبي يتعلّق بأكل الرومان للحم الخيل وأفراس السباق بعد تقاعدها، كلّها تدلّ دلالة واضحة على احترام وتبجيل الشعب الروماني لهذه الحيوانات النبيلة.

لم يكن الشعب في روما وشعوب مقاطعات الإمبراطورية الرومانية في حقيقة الأمر مولعون بمتابعة فعاليات سباق العربات فحسب، وإنما تعدى ولعهم بهذه الرياضة حدّ الهستيريا. وما تعبير جوفينال (Juvenal) من أن الرومان إنما انحصر همّهم في زمانه بمطالبة السلطة الإمبراطورية في روما بتوفير الخبز وألعاب السيرك، ونصرة الأباطرة للفرق المتنافسة من أجل تحقيق مآرب سياسية، سوى أدلّة لواقع معيشيّ أضحى جزء لا يتجزّأ من الحياة اليومية للشعب الروماني[48].

ميادين سباق العربات

في حدود المجال الشامل الممتد ضمن ما يعرف بالليمس الروماني، يصادفنا النطاق الجغرافي للمغرب القديم الذي يمتد من حدود مصر الغربية إلى سواحل المحيط الأطلسي، أين تركّزت مرافق الألعاب الرومانية التي نذكر من ضمنها ميادين سباق العربات. وما يلفت النظر بخصوص سباق العربات في المغرب القديم هو تلك الوفرة في المعطيات الخاصة بهذه الرياضة، وهي وفرة نستشعرها من خلال الأدلة المادية التي جادت بها علينا الأبحاث الأثرية والمتمثلة في لوحات الفسيفساء، التي حفظت لنا صدى تلك المنافسات التي اهتزّت لها ميادين السباق على وقع هتافات المشجعين ومناصري مختلف فرق السباق.

ونشير في هذا الصدد إلى مجموعة من لوحات الفسيفساء التي تنتشر عبر مقاطعات المغرب القديم، نذكر من ضمنها فسيفساء ميدان السباق في قرطاجة المحفوظة حاليا بمتحف الباردو في تونس والتي تعود إلى نهاية القرن الثاني وبداية القرن الثالث الميلادي[49]، فهي تمثّل مشهدا تنافسيا لأربعة فرق يمثّل كلّ فريق منها عربة مقرونة إلى أربعة خيول هي قريبة من خط الوصول (الشكل 6) [50].

وفي حدود معرفتنا بهذه اللوحة فإنها أنجزت من طرف الفنانين الذين أنشأوا ما يعرف بالمدرسة الإفريقية في فن الفسيفساء. ويبدو أن هؤلاء الأخيرين قاموا بنقل أعمال فناني الفسيفساء في روما وأضفوا على تلك الأعمال الطابع الروماني المحلي، وجعلوا من مشاهد لوحات الفسيفساء صورا صادقة للحياة اليومية في المغرب القديم أثناء الاحتلال الروماني. ولعل أهم ما يمكن الإشارة إليه في هذا الصدد يكمن في خصوصية مشاهد

فسيفساء ميدان سباق العربات في قرطاجة فهي الوحيدة التي يظهر فيها ميدان سباق روماني من زاويتين مختلفتين. إذ تصور لنا مشاهد اللوحة الحلبة ومنصات الجمهور من جهة، والبناء الخارجي لهذا الصرح من جهة أخرى، وهي مع هذا تصور لنا منافسة سباق العربات كاملة[51].

وفي واقع الأمر نجد أن النطاق الخارجي للصرح لا يظهر منه إلا إحدى واجهاته وهي تتشكل من قاعدة متينة تعلوها طوابق مزيّنة بأقواس عديدة. وعلى النقيض من ذلك، فقد مثّل الفنان صورة متكاملة لداخل ميدان السباق. وما يمكن ملاحظته أيضًا تغطية شراع (velum) لثلاث واجهات من واجهات المبنى الداخلي، كان الغرض منه حماية الجمهور من تقلبات الطقس، في حين تبدو الواجهة الرابعة من المبنى المقابلة للواجهة الخارجية غير محمية ومنصاتها خالية من الجمهور[52].

ويظهر المشهد تنافس أربع عربات، كل واحدة منها مقرونة إلى أربعة خيول، يقودها رياضيون تزيّنهم ألوان فرق سباق العربات. ويبدو أن المشهد يمثّل فترتين زمنيتين متباينتين، ففضلا عن تسابق ثلاث عربات هي في دوران حول حلبة السيرك، تتجه العربة الرابعة في الاتجاه المعاكس، ويلاحظ إمساك حوذي هذا القرن الأخير بسعفة نخيل، هي دليل انتصاره في السباق. ويبدو من المشهد أن القرن الأخير في دورة شرفية حول حلبة ميدان السباق، ويتقدم العربة المنتصرة فارس (hortator) يمتطي صهوة حصانه فاتحا الطريق للحوذي المنتصر[53].

ومن بين ما يمكن ملاحظته في هذه اللوحة من تلك التفاصيل التي تضفي عليها طابعا محليا خاصا، وجود تمثال المعبودة كيبال (Cybèle) ممتطية أسدًا، وقد وضع التمثال منفردا في وسط حاجز فصل ميدان السباق وهو تأثير روماني. ذلك أنه تم العثور في ميدان السباق الكبير في روما وجود تمثال هذه المعبودة بالقرب من مسلّة تتوسط حاجز الفصل[54]. ففي الوقت الذي اعتمد فيه الحرفيون والفنانون في روما وفي باقي مقاطعات الإمبراطورية الرومانية على نموذج ميدان السباق الكبير في إنجاز لوحات فسيفساء سباق العربات، خالف فيه المغاربة القدماء هذا النموذج، فمثلوا مشاهد سباق العربات معتمدين على النماذج المحلية التي من ضمنها ميدان سباق مدينة قرطاجة[55].

ومما يلفت النظر في لوحة ميدان سباق قرطاجة وجود شخص يبدو أنه من موظفي الملعب يعرف باسم (Sparsor) واقفًا بالقرب من خط الوصول ويحمل سوطا بيد بينما يمسك جرّة مملوءة بالماء باليد الأخرى، والظاهر أن هذا الموظف كانت مهمته إلقاء الماء على الخيول وعرائش العربات لتبريدها[56].

ولا يمكن أن يذكر الباحث فسيفساء ميدان سباق مدينة قرطاجة إلاّ ويجد نفسه مضطرا لذكر فسيفساء بيت سيلين في ليبيا. فالمعلومات حول هذه اللوحة شحيحة جدًا، وما نعرفه عنها أنها اكتشفت بالقرب من مدينة لبدة، وهي تعود إلى نهاية القرن الثاني وبداية القرن الثالث للميلاد، أي أنها معاصرة للوحة ميدان سباق مدينة قرطاجة في تونس. وفي الحقيقة، فإن اللوحتين لهما قيمة تاريخية كبيرة ذلك أنهما أقدم ما نعرفه عن مشاهد سباق العربات الممثّلة على لوحات الفسيفساء[57].

وتمثّل مشاهد لوحة بيت سيلين تنافس مجموعة من العربات المقرونة إلى أربعة خيول، وتشترك مع لوحة ميدان سباق مدينة قرطاجة في كونها تمثّل الحوذي المنتصر يمسك بسعفة نخيل هي رمز انتصاره في السباق. وفي حين كان يتقدم عربة الحوذي المنتصر فارس يرافقه في دورته الشرفية، يلاحظ توسط تمثال كيبال حاجز فصل ميدان السباق.

كما نتعرف من خلال اللوحة على الشخص الذي هو قريب من خط الوصول وهو الموظف الممثّل بنفس الوضعية في فسيفساء ميدان سباق قرطاجة، إذ يحمل سوطًا بيد ويمسك جرّة مملوءة بالماء باليد الأخرى[58].

والمرجّح أن سباق العربات كان خلال القرن الخامس والقرن السادس لا يزال قائما، وأن ممارسة هذه الرياضة كانت مزدهرة، إذ يفيدنا الرجوع إلى لوحة فسيفساء (الشكل 7) اكتشفها فريق من علماء الآثار بالقرب من مدينة قفصة في تونس[59]، تعود إلى بداية القرن السادس الميلادي، في التعرف على منافسات سباق العربات أثناء إجرائها[60].

وما يمكن قوله بخصوص هذه اللوحة الفنية أنها أنجزت من طرف فنانين لم يراعوا الجانب الجمالي في تشكيلها، وهم الذين أبدع أسلافهم مدرسة فنية خلال القرن الثاني والقرن الثالث الميلاديين، أنجز فنانوها لوحات فنية أظهروا فيها أدق التفاصيل. فضلا عن ذلك، فاللوحة تنتمي بنمطها التجريدي إلى الإنتاج الفني المتأخر في المغرب القديم فهي تصور لنا شخصيات المشهد متصلبة ومتصنعة، توحي ملامحها الجسمانية إلى جهل الفنان التام بتمثيل مورفولوجية الإنسان. ولعله من الأهمية بمكان أن نلاحظ هنا تمثيل الجمهور المتابع لفعاليات السباق، فهو على النقيض من لوحات القرنين الثاني والثالث التي تظهر حركية الجمهور وتجاوب المناصرين مع تألق أبطال فرق السباق، إذ يبدو هذا الجمهور بملامح جاثة وخالية من أي مشاعر تمثلها وجوه متراصة في صفوف[61].

وعموما، فإن ميدان سباق مدينة قفصة يوضح لنا النموذج الذي اعتمده الفنان في إنجازه لهذه الفسيفساء وهو ميدان السباق الكبير في روما. فلم يحدث أن عثر علماء الآثار على بقايا مبنى ميدان سباق يعود إلى هذه الفترة في مدينة قفصة أو ما جاورها من الأراضي المحيطة.

وربما أقيمت فعاليات سباق العربات الذي تجسّده اللوحة في فضاء قريب من المدينة، إذ كان بإمكان الأهالي تهيئة سهل يحلّ موضع ميدان السباق وبناء نوع من الساتر الترابي يمثل حاجز فصل الميدان[62]. وقد ترك الوجيه أو الثري للفنان حرية التصرّف في بقية التفاصيل المتعلّقة بالمنافسة، فقام الحرفي بتضخيم الهبة لإظهار سخاء الوجيه[63].

وتظهر مشاهد الفسيفساء تنافس أربع عربات قرنت كل منها إلى أربعة خيول، اثنتان منها في حالة متقدمة من التلف بفعل العوامل الطبيعية التي قضت على جزء كبير من اللوحة، بينما يقود قرن الاثنتين المتبقيتين حوذيان يرتدي كل منهما سترة زرقاء. وفي حين يظهر الفنان تقدم قائد العربة الأولى الممسك بأعنة قرنه، يحاول المتنافس الثاني التقدم على غريمه حاثا خيوله على الإسراع بضربات سوطه المتتالية[64].

خاتمـــة

رغم عدم امتلاكنا للأدلة الأثرية والنصوص التي يمكن لنا بواسطتها تحديد الوضعية الاجتماعية التي تمتع بها قواد عربات السباق، إلاّ أن تألق هؤلاء الرياضيين خلال الاحتفالات التي كانت تقام في المغرب القديم خلال العهد الإمبراطوري، قد جلبت لهم حب الجمهور ومناصرته لهم. وهكذا فإننا لن نكون من المبالغين في حالة ما إذا أكدنا أن النصوص التي وصلت إلينا من الأدباء والمثقفين الوثنيين من أمثال بترونيوس (Petronius) [65] ومارتيال (Martial) [66] وبلينوس الشاب (Pline le jeune) [67]، ومن منظري النصرانية من أمثال ترتوليانوس (Tertullien) [68]، هي صور منقولة عن مشاهد سباق العربات التي تمثّلها

لنا لوحات الفسيفساء. وبأن هذه الصور ليست مجرّد سرد أدبي لمجموعة من المثقفين الذين كانوا يمقتون هذه الاحتفالات، وإنما هي انعكاس للثقافة الرومانية التي جسّدتها ألعاب سباق العربات وألعاب المصارعة، والتي تبناها مجتمع المغرب القديم بمختلف أطيافه.

الهوامش

1 (Sophocle, Electre : 698-756

2) بن علال رضا، «العربات القتالية في المغرب القديم»، حوليات المتحف الوطني للآثار القديمة، 15، 2005، ص8.

3) CIL, VI, 10050

4) بن علال رضا، « عربات الألعاب في المغرب القديم أثناء الاحتلال الروماني «، حولية المؤرخ، 3-4، 2005، ص 62.

5 (Thuillier (J.-P.), Le sport dans la Rome antique, Paris : Errance, 1996, pp 125-130.

6 (Hugoniot (Ch.), Les spectacles de l'Afrique Romaine. Une culture officielle municipale sous l'empire romain, Lille : Atelier National de reproduction des thèses, 1996, T.1, p 621 ; Lassere (J.M.), « Choix d'inscriptions relatives à l'histoire de l'Afrique. Traductions avec éléments de commentaire », dans L'Afrique Romaine de 69 à 439, Romanisation et christianisation, ouvrage collectif coordonné par Bernadette Cabouret, Paris : Editions du Temps, 2005, pp 67-68.

7 (CIL, VIII, 16566.

8 (Ladjimi-Sebai (L.) et Ennaifer (M.), « Le gout du cirque en Afrique », dans Le cirque et les courses de chars : Rome-Byzance, Edité par Christian Landes, Lattes : Imago, 1990, p 160.

9 (Fantar (M.-H.), La Mosaïque en Tunisie, Tunis : Ed. de la Méditerranée, 1994, p 199.

10 (Heron de Villefosse (M.), « Les mosaïques de Tébessa (Théveste) », RSAC, 24, 1886-1887, p 241.

11 (Ennaifer (M.), « Le thème des chevaux vainqueurs à travers la série des mo-

28 (Tite Live, Histoire Romaine, XXXI, 19, 14 ; XXXII, 27,8 ; XXXVI, 4,8 ; XLII, 62 ; XLIII, 6.

29 (Bourdy (F.), « Les chevaux de courses de chars à Rome », dans Le cirque et les courses de chars : Rome-Byzance, Op.cit., pp 147-148.

30) بن علال رضا، «دراسة تحليلية حول أصول ودور العربات القتالية في المغرب القديم»، الحكمة، 3، 2010، ص ص 82-83.

31 (Spruytte (J.), Attelages antiques Libyens, Paris : Maison des sciences de l'homme, 1996, pp 27-31.

32 (Thuillier (J.-P.), Le sport dans la Rome antique, Op.cit., p 134.

33 (Ladjimi-Sebai (L.) et Ennaifer (M.), « Le gout du cirque en Afrique », Op.cit., p 159.

34 (Thuillier (J.-P.), Op.cit., p 134.

35 (Hugoniot (Ch.), Les spectacles de l'Afrique Romaine…, T.1, Op.cit., p 633-634.

36 (Ennaifer (M.), « Le thème des chevaux vainqueurs à travers la série des mosaïques Africaines », Op.cit., p 830 ; fig. 16.

37 (Hugoniot (Ch.), Op.cit., p 634; 637.

38 (Duval (N.), « Les prix du cirque dans l'antiquité tardive », dans Le cirque et les courses de chars : Rome-Byzance, Op.cit., p 137.

39 (Ladjimi-Sebai (L.) et Ennaifer (M.), « Le gout du cirque en Afrique », Op.cit., p 159.

40 (Bourdy (F.), « les chevaux des courses de chars à Rome», Op.cit., p 147.

41 (Beschaouch (A.), « Encore la mosaïque des chevaux de Carthage : A propos saïques Africaines », MEFRA, 95, 2, 1983, 821.

12 (Ladjimi-Sebai (L.) et Ennaifer (M.), « Le gout du cirque en Afrique », Op.cit., pp 160-161.

13 (Picard (G.-Ch.), La civilisation de l'Afrique Romaine, Paris : Plon, 1959, p 261.

14 (Thuillier (J.-P.), Op.cit., p 130.

15 (Hamman (A.-G.), La vie quotidienne en Afrique du nord au temps de Saint Augustin, Paris : Hachette, 1979, p 159.

16 (Hugoniot (Ch.), Les spectacles de l'Afrique Romaine…, T.1, Op.cit., p 639.

17) بن علال رضا، «عربات الألعاب في المغرب القديم أثناء الاحتلال الروماني»، المرجع السابق، ص 63.

18 (Mahdjoubi (A.), Les cités romaines de Tunisie, Tunis : S.T.D, S.D, pp 86-87.

19 (Sablayrolles (R.), « La passion du cirque sous le Haut Empire », dans Le cirque et les courses de chars : Rome-Byzance, Edité par Christian Landes, Lattes : Imago, 1990, p 127.

20 (Yakoub (M.), Splendeurs des Mosaïques de Tunisie, Tunis : Agence Nationale du Patrimoine, 1995, p 301.

21 (Mahdjoubi (A.),Op.cit., p 84.

22 (Hugoniot (Ch.), Op.cit., pp 625-626.

23 (Tran (N.), « Les grandes productions africaines dans les échanges méditerranéens de la fin du Ier s. au début du Ve s. ap. J.-C. », dans L'Afrique Romaine de 69 à 439, Op.cit., p 175.

24 (Strabon, Géographie, XVII, 3, 7.

25 (Tite Live, Histoire Romaine, XXX, 11, 7-11.

26 (Ibid., XXX, 6, 9.

27 (Polybe, Histoire, XII, 3, 3-4.

p 159.

57 (Yakoub (M.), Splendeurs des Mosaïques de Tunisie, Op.cit., p 302.

58 (Picard (G.), « La villa du taureau à Silin (Tripolitaine) », CRAI, 129e année, 1, 1985, fig. 2, p 231.

59 (Fantar (M.-H.), La Mosaïque en Tunisie, Op.cit., p 181.

60 (Yakoub (M.), « Les aspects particuliers de la scène de courses dans la mosaïque de cirque de Gafsa », Op.cit., p 495.

61 (Fantar (M.-H.), La Mosaïque en Tunisie, Op.cit., p 180-181.

62 (Hugoniot (Ch.), Les spectacles de l'Afrique Romaine…, T.1, Op.cit., pp 619-620.

63 (Fantar (M.-H.), Op.cit., p 181-182.

64 (Ibid., p 181.

65 (Pétrone, Satiricon, LXX, 13.

66 (Martial, Epigrammes, XI, 1.

67 (Pline le jeune, Lettres, IX, 6.

68 (Tertullien, Contre les spectacles, 16.

de Polystefanus le coursier aux multiples victoires », CRAI, 1996, pp 1315-1320.

42) بن علال رضا، «الحصان الليبي من خلال بعض نصوص المصادر الأدبية الإغريقية واللاتينية «، الباحث، 1، 2009، ص ص195-196.

43 (Picard (G.-Ch.), La civilisation de l'Afrique Romaine, Op.cit., p 262

44 (Fantar (M.-H.), La Mosaïque en Tunisie, Op.cit., p 195.

45 (Ennaifer (M.), « La Mosaïque aux chevaux d'El Mahrine (Près de Thuburbo Minus. L'actuel Tébourba) », MEFRA, 106, 1, 1994, pp14 303-318.

46 (Thuillier (J.-P.), Le sport dans la Rome antique, Op.cit., p 135.

47 (Bourdy (F.), « les chevaux des courses de chars à Rome », Op.cit., p 148.

48 (Veyne (P.), Le pain et le cirque, Op.cit., p 84 et pp 701-714.

49 (Yakoub (M.), Op.cit., p 302.

50 (Ling (R.), Ancient Mosaics, London: British Museum Press, 1998, p 91

51 (Fantar (M.-H.), Op.cit., p 179.

52 (Golvin (J.-C.) et Fauquet (F.), « Les images du cirque de Carthage et son architecture. Essai de restitution », dans Mélanges offerts à Louis Maurin, Bordeaux, 2003, p 284.

53 (Fantar (M.-H.), La Mosaïque en Tunisie, Op.cit., p 180.

54 (Golvin (J.-C.) et Fauquet (F.), Op.cit., p 289.

55 (Yakoub (M.), « Les aspects particuliers de la scène de courses dans la mosaïque de cirque de Gafsa », Les Cahiers de Tunisie, 29, 1981, pp 495-497.

56 (Ladjimi-Sebai (L.) et Ennaifer (M.), « Le gout du cirque en Afrique », Op.cit.,

شكل 1

فسيفساء الحوذي المنتصر (Eros)، مدينة دوقـــة (تونس)
Yakoub (M.), Splendeurs des mosaïques de Tunisie, p 313.

شكل 2

فسيفساء عودة الحظ (Fortuna redux)، تبسة (الجزائر)
Blas de Roblès (J.-M) et Sintes (C.), Sites et monuments antiques de l’Algérie, p 232.

شكل 3

حوذي منتصر يقود عربة مقرونة بأربعة خيول
Yakoub (M.), Splendeurs des mosaïques de Tunisie, p 312.

شكل 4

فسيفساء منزل سوروتوس في سوسة (تونس، القرن الثالث الميلادي)
Yakoub (M.), Splendeurs des mosaïques de Tunisie., p 203.

شكل 5

فسيفساء خيول السباق المنتصرة، متحف الباردو (تونس)
Fantar (M.-H.), La Mosaïque en Tunisie, p 193.

شكل 6

ميدان سباق العربات في قرطاجة
Yakoub (M.), Splendeurs des mosaïques de Tunisie, p 302.

شكل 7

فسيفساء سباق العربات، قفصه (تونس)، الفترة البيزنطية
.Yakoub (M.), Splendeurs des mosaïques de Tunisie, p 306